بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 02 نوفمبر 2017

علم اجتماع الأمن ...
محاولة للتّأصيل

خالد كاظم أبو دوح
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

تحاول هذه الدّراسة التّأكيد على ضرورة الانتباه والتّركيز على الأمن كظاهرة أو ممارسة اجتماعيّة، ويجب - خلال السنوات القادمة - العمل على تطبيق أدوات التّحليل السوسيولوجيّ عليها، خاصّة، بعد أن أصبحت الهموم والمعضلات المرتبطة بالأمن جزءًا أساسيًا من حياتنا الفرديّة والجماعيّة، التي تلقي بتأثيراتها القويّة على تشكيل طبيعة العلاقات الاجتماعيّة، سواء من خلال الخطاب أو الممارسة.

وتحاول هذه الدّراسة، أيضًا، جمع بعض الأسئلة المرتبطة بالأبعاد العامّة لما يمكن أن نطلق عليه علم اجتماع الأمن (Sociology of Security)، وكذلك الدّخول في جدل نقديّ مع الرّؤية الأمنيّة البحتة، والأساليب التقليديّة لدراسة الأمن، ويصبح الهدف الأساسيّ - هنا - هو التّعامل مع الأمن باعتباره - أيضًا - عمليّة اجتماعية أساسيّة، قد يخضع للتّغيير، لكنّه يمثّل جزءًا أساسيًا من مجمل العلاقات الاجتماعيّة، ويتكامل مع الأجزاء الأخرى، بما يحقّق استقرار الاجتماع الإنسانيّ برمّته واستمراريّته، الذي بدونه - أي الأمن - يمكن أن تصبح الحياة الإنسانيّة في خطر.

المقدّمة:

منذ أن قرأت كتاب «أولريش بيك» المعنون بـ «مجتمع المخاطر العالميّ: بحثًا عن الأمان المفقود»، وأنا أتساءل، كباحث في علم الاجتماع، لماذا أهملت السوسيولوجيا موضوع الدّراسة الاجتماعيّة للأمن؟ ولماذا لم يهتم علماء الاجتماع، خاصّة في السّنوات الأخيرة، بتأسيس فرع يمكن أن يطلق عليه علم اجتماع الأمن؟ خاصّة وأنّه لا يخفى على الباحثين الاجتماعيّين التّدهور الواضح لمستويات الأمن بمفهومه الشامل، أو الأمن المرتبط بفكرة العيش المشترك أو الاجتماع الإنسانيّ.

ليس هذا فحسب؛ فالواضح أنّ المجتمع الإنسانيّ يعاني خلال العقود الثلاثة الماضية من تواتر الأخطار والأحداث والكوارث، التي خلقت من المجتمع الإنسانيّ في عديد من دول العالم مجتمعًا (غير آمن)، أو على الأقل، مجتمع يشهد تدهور في مستويات الأمن، هل يمكن للمجتمع أن يستقيم بدون الأمن؟ كذلك فإنّه أصبح من الصّعب على أيّة دولة أو جماعة أو أفراد أن تؤمّن نفسها بشكل مناسب ضدّ المخاطر، وتآكل الأمن من حولها.

والحديث عن ضرورة وجود علم اجتماع للأمن، أو ضرورة الاهتمام بالدّراسة السوسيولوجيّة للأمن، لا ينفي أن هناك عديد من العلوم الاجتماعيّة التي عدّت الأمن واحدًا من موضوعات اهتمامها، إلّا أن هذه العلوم، خاصّة علم السّياسة وعلم العلاقات الدوليّة، أو العلوم العسكريّة، كان تركيزها على جانب واحد من جوانب الأمن، حتّى عندما تطوّر مفهوم الأمن، مع بداية الحديث عن الأمن بمفهومه الشّامل، كان تطوّره يفتقد المنظور السوسيولوجيّ الذي يمكن أن يساهم في الكشف عن الكثير من الأشياء المخبوءة في دراسات الأمن.

وعلى هذا، تحاول هذه الدّراسة التأكيد على ضرورة الانتباه والتركيز على الأمن - كظاهرة أو ممارسة اجتماعية - ويجب العمل - خلال السنوات القادمة - على تطبيق أدوات التحليل السوسيولوجي عليها، خاصّة، بعد أن أصبحت الهموم والمعضلات المرتبطة بالأمن جزءًا أساسيًا من حياتنا الفردية والجماعيّة، التي تلقي بتأثيراتها القويّة على تشكيل طبيعة العلاقات الاجتماعيّة، سواء من خلال الخطاب أو الممارسة.

وتحاول هذه الدّراسة، أيضًا، جمع بعض الأسئلة المرتبطة بالأبعاد العامّة لما يمكن أن نطلق عليه علم اجتماع الأمن (Sociology of Security)، وكذلك الدخول في جدل نقديّ مع الرؤية الأمنية البحتّة، والأساليب التّقليدية لدراسة الأمن، ويصبح الهدف الأساسيّ، هنا، هو التعامل مع الأمن باعتباره - أيضًا - عمليّة اجتماعية أساسية، قد يخضع للتّغيير، لكنّه يمثّل جزءًا أساسيًا من مجمل العلاقات الاجتماعيّة، ويتكامل مع الأجزاء الأخرى، بما يحقّق استقرار الاجتماع الإنسانيّ برمّته، واستمراريّته، والذي بدونه - أي الأمن - يمكن أن تصبح الحياة الإنسانيّة في خطر.

أوّلاً: الخيال السوسيولوجيّ وضرورة علم اجتماع الأمن

تتطلّب الدّراسة العلميّة المنظّمة للعالم الاجتماعيّ - دائمًا - أن يمتلك الباحث الاجتماعيّ الخيال اللّازم لذلك، خاصّة وأنّ هناك طرائق متنوّعة للنظر إلى العالم الاجتماعيّ الذي نعيشه، وظاهرة قدرة الفرد على النّظر إلى العالم الاجتماعيّ من وجهات نظر مختلفة، حصلت على اهتمام عالم الاجتماع الشّهير رايت ميلز (Wright Mills)؛ الذي كتب - عام 1959م - كتابًا مهمًّا بعنوان "الخيال السوسيولوجي"، وضّح فيه أنّ علماء الاجتماع كانت لديهم وجهة نظر فريدة - الخيال السوسيولوجي - أعطت لهم طريقة ومنهجيّة متميّزة، خاصّة، بالنّظر في البيانات أو التّفكير في العالم من حولهم وتحليله وفهمه وتفسيره[1].

ويحتاج علم الاجتماع - اليوم - إلى الكثير من الخيال السوسيولوجيّ، وهو يواجه ما يحدث في هذا العالم من تحوّلات وتغيّرات، تهدّد فكرة أمن الاجتماع والعمران البشريّ، كما كان في عصر «ميلز»، ويحتاج - أيضًا - إلى ضرورة الاهتمام بدراسة الوقائع الجديدة الناشئة، ومنها - على سبيل المثال: مفهوم الأمن وأشكاله من وجهة نظر علم الاجتماع، المخاطر التي تهدّد الأمن الإنسانيّ، مثل؛ الصّراعات والحروب الأهليّة، والإرهاب، والتّهديدات الجديدة التي تظهر وتنمو كلّ يوم، سواء في المجتمعات المتقدمة أو المجتمعات الأقل تقدّمًا، وكذلك الممارسات التي تتمّ في المجتمع الافتراضيّ، وتهدّد أمن الإنسان وحياته.

ويصبح الخيال السوسيولوجيّ مفيدًا جدًّا في مساعدة علماء الاجتماع على رؤية الصّلة بين المشكلات الخاصّة التي تهدّد أمن الفاعل الاجتماعيّ، والمشكلات العامّة التي تهدّد أمن الاجتماع البشريّ برمّته[2].

يستطيع علم اجتماع الأمن - من خلال الخيال السوسيولوجيّ - أن يقوم بالمهامّ المأمولة منه، وأن يكون قادرًا على مواجهة العالم، وهذه المواجهة تحمل معنى مزدوج؛ فهي تتضمّن ضرورة أن يهتم علماء الاجتماع بتأسيس علم اجتماع الأمن، والاستفادة من التّراث المرتبط بدراسة الأمن من خلال العلوم الأخرى، والقيام بفحص التّحديات التي تؤثّر في أمن الاجتماع والعمران الإنسانيّ ودراستها وفهمها، وكذلك تحمل هذه المواجهة دور علماء الاجتماع في ملاحظة هذه الظّواهر ومتابعتها، ومن خلال المعنى الأوّل؛ يهتم الباحثون - بالدرجة الأولى - بالاستجابة بشكل كافٍ للتحديات والاتجاهات التي تهدّد الأمن البشري، وفي المعنى الثاني؛ يكون التّركيز على فحص هذه التّحديات ومحصلاتها التحليلية.

1- يعد "رايت ميلز" عالم اجتماع أمريكيّ (1916-1962)، ونشر أهمّ أعماله خلال فترة الخمسينيّات من القرن العشرين، وقد أصدر "ميلز" كتابه "الخيال السوسيولوجي" في عام 1959م، ويمثّل أطروحة رائعة وعرضاً مميّزاً للنزعة الإنسانيّة الكامنة وراء علم الاجتماع كعلم، والخيال السوسيولوجي لدى "ميلز"؛ هو رؤية اجتماعيّة، وأسلوب للنظر إلى العالم، يمكن من خلال إدراك الارتباط بين المشكلات الفردية والقضايا والمشكلات الاجتماعيّة المهمّة والكبرى، وقد صدرت ترجمة لهذا العمل، انظر في ذلك:

- رايت ميلز، الخيال السوسيولوجي، ترجمة: عبد الباسط عبد المعطي وزميله، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.

2- World Social Science Report 2010, UNICCO, Paris, 2010, P.11.

والعالم المقصود هنا؛ هو العالم المرتبط بالتحوّلات والتطورات العميقة، التي تهدّد حياة الإنسان واجتماعه وأمنه، والتي تحدث على النطاقين المحليّ والعالميّ.

والتحديات التي يواجهها العالم قد ترتبط بالعديد من مهددات حياة البشر؛ كالتغيرات المناخيّة، وتلوث البيئة، وتنامي مستويات الفقر، والأزمات الاقتصادية، والتفاوت، وعدم المساواة، ....إلخ، يضاف إلى ذلك تحديات أخرى؛ ترتبط بقضايا الجندر، وقضايا الفقر والأزمات الاقتصادية، وأزمات الغذاء، وتنامي حوادث العنف والإرهاب، وظاهرة الهجرات المشروعة وغير المشروعة، كلّ هذا وغيره من المعضلات تهدّد - بالأساس - أمن الاجتماع البشري، والعمران الإنسانيّ كلّه، وتهدّد وجود المجتمع واستمراريّته، وتظهر وتحدث في الكثير من الدول والأماكن، فليس هناك سياق يستطيع أن يجعل نفسه بمعزل عن هذه المهددات.

ثانياً: علم اجتماع الأمن: مقاربة سوسيولوجية

لقد أصبحت الهموم والتحديات المرتبطة بالأمن جزءاً أساسياً من الحياة الفردية والجماعية للإنسان، والتي تلقي بتداعياتها القوية على تشكيل طبيعة العلاقات الاجتماعية، سواء من خلال الخطاب أو الممارسة.

وتشير الممارسة إلى أن الأمن يؤسس اجتماعياً وثقافياً في عقول الأفراد، ويصبح من العوامل المؤسسة والمسيطرة على حياتهم الاجتماعية، وهذه العوامل كأطر حاكمة لرؤيتنا للأمن هي بمثابة عملية يقوم الآخرون من خلالها بتقييم طرق معيشتنا الاجتماعية ورؤيتنا للأمن، وتساعدنا على فهم القوى المتفاعلة، التي من خلالها يؤثر الأمن على أسلوب تعامل الفاعلين الاجتماعيين مع بعضهم البعض، كما أن هذه العوامل تعكس الصراع الدائر بين القيم الديمقراطية والسلطوية البيروقراطية المنظمة، والتي من خلالها يؤسس النظام الاجتماعي الديمقراطي الحديث[3].

(1) مفهوم الأمن: نزاع جديد على مفهوم قديم

يعد مفهوم الأمن من المفاهيم المحورية التي لا خلاف على أهميّتها، ولقد اهتمّ كثير من العلماء بإعطاء العديد من التّعريفات لهذا المفهوم، الأمر الذي أضاف إليه عديدًا من الأبعاد السياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة والثقافيّة، على المستويات القوميّة والعالميّة.

وعلى الرغم من تعدّد محاولات تعاريف الأمن، إلّا أنّه ظلّ واحدًا من المفاهيم الصّعبة والغامضة، ولعلّ ذلك ما جعل معظم علماء الاجتماع يتجاهلون هذا المفهوم، مقابل أنّهم فضّلوا الاهتمام والتركيز على مفاهيم؛

3- Vida Bajc, Sociological Reflections on Security Through Surveillance, Sociological Forum, Vol.22, No.3, 2013, P.1.

القوّة، السّلطة، النّظام، الضّبط الاجتماعيّ، ..إلخ؛ لذلك يمكن القول: إنّه ليس هناك علم اجتماع للأمن يمكن الحديث عنه أو تمييزه[4].

ولا بدّ - هنا - من الإشارة إلى ضرورة إعادة النّظر في النّظرة العلميّة التقليديّة لمفهوم الأمن، التي تذهب إلى أنّ الأمن متغيّر، أو عمليّة ترتبط بوجود الدّولة ذات القوّة العسكريّة فحسب، وأنّ الأمن يتركّز في مؤسّسات الدّولة وقوانينها فحسب، ولعلّ مثل هذه الرّؤية جعلت العلوم العسكريّة والأمنيّة تسيطر على دراسات الأمن منفردة[5].

فمما لا شكّ فيه؛ أنّ معظم مكوّنات الأمن وأصوله العميقة تقبع في قلب المجتمع والاجتماع، وعلى هذا؛ تعدّ القيم الثقافيّة، وعمليّات التنشئة الاجتماعيّة، والعمليات الاجتماعيّة عامّة؛ كالتعاون، والاندماج الاجتماعيّ، والتّنافس، والصّراع، تمثّل محدّدات ومتغيّرات مؤثّرة في عمليّة الأمن، ولا تقلّ بأيّ حال من الأحوال، من حيث أهميّتها، عن فكرة الأمن بالمعنى التّقليدي، الذي يؤسّس على القوّة العسكرية للدّول.

ووجهة النظر التي تتعامل مع الأمن كمتغيّر مرتبط بنظريّة الدّولة القويّة (بحسب وجهة نظر علماء الواقعيّة والواقعيّة الجديدة)، ترتبط بفكرة محوريّة تدور حول العلاقة الحتميّة بين الأمن وقوّة الشّرطة والجيش، وأنّ توافر القوّة العسكرية والشّرطية، يضمن مستويات عالية من الأمن داخل الدّولة[6].

وتعدّ وجهة النّظر هذه - خاصّة في عالمنا المعاصر - نظرة ضيّقة جدًّا للأمن، وتدفع الدّول نحو ثقافة حيازة الأدوات الماديّة للأمن «الأسلحة»، والحفاظ عليها (سواء بالنّسبة إلى الأفراد أو الدّول)، ومثل هذه الثّقافة، من ناحية أخرى، تنتج الإحساس بعدم الأمن ذاته، نتيجة التّركيز على حيازة الأسلحة، والاهتمام بثقافة استعراض القوّة بصورتها المادية[7].

ويدافع أصحاب النظرية الواقعيّة عن وجهة نظرهم، من خلال الإشارة إلى أنّ الاستخدام الرشيد والمناسب للقوّة والسّيطرة، هو الذي يضمن الحفاظ على القوّة الوطنية، وهذا عكس ما تحاول هذه الدراسة تأكيده؛ حيث إنّ مثل هذه الرّؤية للأمن القوميّ تؤكّد انعدام الأمن أكثر من توافره، ممّا أدّى إلى أن الأفراد والمواطنين أصبحوا ينفروا من مفهوم الأمن، على الرّغم من أنّه عمليّة أساسيّة ومحوريّة لبقائهم على قيد

4- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Working Paper, No. 90, July, 1990, P.3.

5- Eibe Riedel, Social Security as A Human Right, Spring, New York, 2007, PP.13-17.

6- تشير النظريّة الواقعيّة، بشقيها الكلاسيكي والجديد، إلى أنّ الدّولة القوميّة هي الفاعل الرئيس، ولا تهتمّ إلا بتحقيق أمنها وبقائها من خلال توسيع نطاق حيازتها للقوة الماديّة. لمزيد من التفاصيل حول النّظرية الواقعية والواقعية الجديدة ورؤيتها للأمن، انظر:

- أنور محمد فرج، نظريّة الواقعية في العلاقات الدولية، مركز كردستان للدراسات الإستراتيجيّة، السليمانية، 2007م، ص 20- 30

- أحمد أبو زيد، نظرية العلاقات الدولية، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 36، خريف 2012م، ص ص 49- 50

7- Barry Buzan, Rethinking Security After the Cold War, Cooperation and Conflict, Vol.32, No.1,1997, PP.5-28.

الحياة، ولاستمرار النّظم الاجتماعيّة التي يعيشون في سياقها، كما أنّه من الممكن تفسير عمليّة الحفاظ على النّظم الاجتماعيّة واستمراريتها، وتأسيس البيئة الاجتماعية الآمنة بشكل أفضل، من خلال التخلّي عن فكرة القسريّة، واستخدام القوّة باختلاف صورها، والاعتماد على فكرة السلميّة، بدلًا من القسر والإجبار والعنف، وذلك لأنّ التّبادلات السلميّة غير العنيفة مازالت هي السائدة، والأكثر انتشاراً في معظم بلدان العالم، وهي العامل المشترك بين الأفراد والدّول، بينما العمليّات العنيفة المشتركة هي الاستثناء، لتأسيس الأنظمة الأمنية الوطنيّة، ويعدّ هذا تقليلًا من أهميّة العمليّات الأخرى وفاعليّتها، التي تضمن حقّ البقاء على قيد الحياة عبر الزّمن؛ سواء للبشر أو للنظم الاجتماعيّة[8].

لقد ركّز علماء السياسة - في تصوّراتهم حول مفهوم الأمن - على فرضيّة أنّ الأمن بالأساس يرتبط بمسألة بقاء الدّولة، دون الذهاب إلى تفاصيل أبعد من ذلك، فهم يفترضون أنّ الأمن يكمن في الحفاظ على سلامة الدّولة، وحماية القيم والأهداف الوطنيّة من الأعداء والخصوم - الحقيقيّين أو الافتراضيّين، ووفق هذا التصوّر؛ أصبح الأمن - من الناحية العمليّة - يرتبط ارتباطًا وثيقًا بأنشطة الدبلوماسيّين ورجال السّياسة، ونخبة الحكم، والخبراء الأمنيّين والعسكريّين، بمعنى أنّ الأمن هو ما تتحدّث عنه نخبة الأمن القوميّ باعتباره أمنًا، ولم يكن هناك اهتمام بمدى اتّساق آراء هؤلاء عن الأمن مع باقي مكوّنات الدّولة، أو مع وجهات نظر المواطنين العاديّين أو المجتمع[9].

وعلى هذا؛ أصبح مفهوم الأمن واحدًا من المفاهيم التي تخصّ المؤسّسات السياسيّة وعلماء السّياسة، لاسيّما محلّلي العلاقات الدّولية والإستراتيجيّة، وبعض العسكريّين، وباتت هذه الفكرة أمرًا مفروغًا منه، وغير هؤلاء من البيروقراطيين يستخدم المفهوم دون التّساؤل أو التّفكير فيما يعنيه بالنّسبة إليهم.

ولذلك؛ نطرح فكرة ضرورة تأسيس علم اجتماع للأمن، لا يتخلّى عن التّراث العلميّ الكبير الذي أنتجته لنا مختلف فروع المعرفة التي اهتمّت بدراسات الأمن؛ بل يبدأ منه بهدف إنتاج نظريّات ورؤى مفاهيميّة للأمن، تتضمّن بحث الأساليب التي يستطيع من خلالها كلّ الأفراد - على حدّ السواء - تحقيق الشّعور بالأمن والأمان الحقيقيّ، وتوفير الأساليب المبدعة للتّعامل السوسيولوجيّ مع صور الوحشيّة واللّاإنسانيّة والبربريّة التي بدأت تنتشر في هذا العالم، وكذلك التهديدات وأشكال الخوف والقلق والعنف والإرهاب والقتل، سواء على المستويات الماديّة أو المعنويّة.

8- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Op.Cit., P.2.

9- Ibid, P.3.

كما أنّ محاولة الفهم السوسيولوجيّ للأمن، يمكن أن تساعد في مزاحمة الآراء السياسيّة التي سيطرت على النّظريات التي اهتمت بتفسير الأمن ومنافستها، وأن تمكّن الأفراد من تحديد ما إذا كانت المؤسسات التي أُنشئت من أجل خلق الأمن والمحافظة عليه قد نجحت في ذلك أم لا؟

(2) الفهم السوسيولوجي للأمن:

يعدّ مفهوم الأمن من أصعب المفاهيم التي يتناولها التحليل العلميّ؛ لأنّه مفهوم نسبيّ ومتغيّر ومركّب، وذو أبعاد عدّة ومستويات متنوّعة، يتعرّض لتحديات وتهديدات - مباشرة وغير مباشرة - من مصادر مختلفة، تختلف درجتها وأنواعها وأبعادها وتوقيتها، سواء تعلّق ذلك بأمن الفرد أو الدّولة، أو النظام الإقليمي أو الدولي، ويعدّه كثير من الباحثين أحد المفاهيم المركزية في حقل العلاقات الدولية، الذي اتّسم بالغموض الشديد منذ ظهور العلاقات الدوليّة كحقل علميّ مستقلّ عقب الحرب العالمية الأولى، ولقد احتلّت القضيّة الأمنيّة وضعًا مركزيًّا في السّياسات الخارجيّة لبعض الدّول التي عادة ما تتّخذ الأمن هدفًا من أهدافها، يتحقّق باتّباع إجراءات وقائيّة وأخرى علاجيّة، تهدف من ورائه إلى تغيير البيئة المحيطة. ولم يعد الأمن يقتصر على الفهم التقليديّ الذي يركّز على حماية الحدود الإقليمية، أو بمعناه العسكريّ؛ إنّما اتّخذ أبعادًا أشمل من ذلك، تنطوي على تطوّر المجتمع باتّجاه تحقيق أهدافه التي تضمن مصالحه[10].

تتّفق معظم القواميس في أنّ فعل «أَمَّنَ» (Secure)، والاسم منه: الأمن (Security)، هو: التحرّر من الخطر والمخاطرة، أو الابتعاد عن الخسارة والإحساس بالأمان، أو التّحرر من الخوف والشكّ والقلق والرّيبة، وهو - أيضًا - كلّ الأشياء التي تمنحك السّلامة والوصول إلى الأمان. والأصل اللّاتيني لمصطلح (Security) هو: (Securus)، أي؛ آمن[11].

وللإجابة عن سؤال: ماذا نقصد بالأمن؟ يجب علينا التّمييز بين معنيين[12]:

الأوّل: المعنى المحدّد والواضح في الخطاب والممارسة (مثال: عندما يبرّر السياسيّون تقليص الحريّات المدنية باسم «الأمن القوميّ»، أو عندما تقوم المدارس بتركيب أجهزة الكشف عن المعادن، أو كاميرات مراقبة عبر طرقات المدرسة باسم «أمن الطلاب»).

10- سليمان عبد الله الحربي، مفهوم الأمن: مستوياته وصيغه وتهديداته، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 19، بيروت، صيف 2008، ص 9.

11- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Op.Cit., P.3.

12- Lisa Stampnitzky, Toward A Sociology of "Security", Sociological Forum, Vol.28, No.3, Sep. 2013, P.631.

الثّاني: الأمن فئة تحليل أوسع نطاقًا، تشمل مجموعة متنوّعة من الظواهر المتعلّقة بالتفهّمات الثّقافية للسّلامة، والأمان، والفوضى، وانعدام الأمن (ودمج هذه الظّواهر مع مشكلات اجتماعيّة؛ كالبطالة، والجريمة، والمرض، والتي تكون مؤثّرة - بشكل مباشر أو غير مباشر - في الأمن، من خلال رؤية الفاعلين المحليّين).

والأمن، وفق الرّؤية السوسيولوجيّة، يعبّر عن إدراك الأفراد والجماعات الاجتماعية والمؤسّسات للواقع الاجتماعيّ والوعي به، والذي يتمّ تأسيسه داخليًا، كشعور أو عاطفة، ويترجم سياسيًا كأيديولوجيّة، أو سياسة عمل، سواء كان ذلك يرتبط بوجهة نظر مستشاري الأمن القومي، أو يرتبط برؤية أحد أفراد المجتمع.

الأمن هو - بالأساس - تصوّر للعالم الاجتماعيّ، ويلقي بتأثيراته على الطّريقة التي نمارس بها تفاصيل حياتنا اليومية، ويشمل مفهوم الأمن مجموعات من الفهم الأمنيّ للكيفيّة التي يعمل بها العالم، والفهم الثقافيّ للمخاطر وعدم اليقين. الأمن هو رصيد الخبرة الذي نمتلكه، الذي هو جزء لا يتجزّأ من الأطر الثّقافية التي تحدّد ما نراه آمنًا ومنتظمًا، وما نراه فوضويًا، ويحدّد مشاعرنا نحو الأمن والسّلامة، ويحدّد لنا المستويات التي نشعر معها بالأمن[13].

ثالثًا: ضرورات الفهم السوسيولوجيّ للأمن:

من الواضح والمؤكّد أنّنا نعيش في عالم مختلف، عالم يشهد عديدًا من التطوّرات العميقة والمتدفقة، التي تهدّد الاجتماع والعمران الإنسانيّ طوال الوقت، وتهدّد فكرة العيش المشترك الآمن، سواء على المستويات المحليّة أو العالميّة، ولعلّ من أبرز هذه التحدّيات أو المهدّدات؛ التغيّر البيئيّ، والتحوّلات المناخيّة، وإشكاليّات التفاوت والفقر، والأزمات الاقتصاديّة، وكذلك الميول التي تهدّد المجتمعات البشريّة، مثال: الشيخوخة، والتهميش، وظهور الأمراض والأوبئة، وأزمات الأمن الصحيّ، ومشكلات الهجرات المشروعة وغير المشروعة، كلّ هذا وغيره دفع العديد من العلماء إلى توصيف هذا المجتمع بأنّه مجتمع المخاطر، أو عالم منفلت، أو عالم البحث عن الأمان المفقود.

ولقد ارتبط الفهم السوسيولوجيّ لمجتمع المخاطر «بأولريش بيك»؛ الذي أصدر كتاب بعنوان «مجتمع المخاطر العالمي: بحثًا عن الأمان المفقود»، ولقد أشار «أولريش» أنّ ما كان مبالغًا فيه قبل عشرين عامًا أصبح أمرًا واقعًا ومحسوسًا، وأضاف - أيضًا - أنّ المجتمع الصناعيّ بدأ بالاندثار، مفسحًا المجال لمجتمع

13- Vida Bajc, Sociological Reflection on Security Through Surveillance, Op.Cit., P.2.

جديد تسوده الفوضى، وتغيب فيه أنماط الحياة المستقرّة، ومعايير السلوك الإرشاديّة، وأصبحت دلالات المخاطرة اليوم شديدة الآنية والأهمية في لغات التقنيّة والاقتصاد والعلوم الطبيعية، وكذلك في لغة السّياسة[14].

أمّا «أنتوني جيدنز»؛ فقد ذهب إلى أنّ العولمة تشكّل السّمة الأساسيّة للّحظة الراهنة في عالم اليوم، وأنّ الانفلات هو أحد سمات العولمة، إن لم يكن سمتها الأبرز؛ لهذا أطلق على هذا العالم بأنّه: «عالم منفلت»، والحركة والتغيّرات فيه لا تخضع لسيطرة البشر بشكل كامل[15].

يمكن لنا - من خلال مراجعة الرؤى السابقة وغيرها - التي ركّزت على تحليل العالم الراهن ووصفه، التّأكيد على أنّنا بصدد مجتمع تتميّز ملامحه وسماته بأنّها تبدو مشوّشة، وتهزّ الأساليب القائمة للعيش الإنسانيّ المشترك، وهو - على الأقل حاليًا - ليس مجتمعًا أو نظامًا عالميًا تدفعه الإرادة الإنسانية الجماعية؛ بل إنّه يظهر كلّ يوم إلى حيّز الوجود بطريقة فوضويّة واعتباطية، تؤثّر فيه العديد من العوامل الظاهرة والخفية، إنّه مجتمع ليس مستقرًا أو آمنًا، إنّه مجتمع محكوم باللّايقين، ومكتظّ بالقلق، ومقسَّم بشكل عميق وغير عادل.

(1) مخاطر العالم الرّاهن وانعدام الأمن:

عادة يكون في عقول هؤلاء الذين يستخدمون مفهوم الأمن، أنواع محدّدة من التّهديدات والمخاطر، على الرّغم من أنّ المخاطر والتّهديدات التي تواجه الأمن تنشأ من خلال مصادر عديدة ومتنوّعة، إلّا أنّه من الثّابت أنّ العالم المعاصر يتضمّن صورًا عديدة من التّهديدات والمخاطر، التي لا ترتبط فحسب بتهديد أمن دولة بعينها، ولكن تتضمن تهديداً لحياة البشر على اختلاف الدول، وكأنها تهديدات ومخاطر معولمة تتجاوز حدود الدول والقارات[16].

وسوف نحاول هنا تقديم عرضاً عاماً لأهم التّحولات والتّهديدات التي تواجه عالمنا المعاصر، وتهدّد جوانب عديدة للاجتماع البشريّ، وتلقي بالمخاطر التي تعدّ معضلات أمام العمران الإنسانيّ، خاصّة، أنّ مثل هذه التهديدات ألقت بالعديد من صور الشكّ وعدم اليقين والشعور بانعدام الأمن لدى العديد من الأفراد والجماعات والدول، وذلك على النّحو الآتي:

14- أولريش بيك، مجتمع المخاطر العالمي: بحثاً عن الأمان المفقود، ترجمة: علا عادل وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013م، ص25.

15- أنتوني جيدنز، عالم منفلت: كيف تشكل العولمة حياتنا، ترجمة: محمد محيى الدين، دار ميريت، القاهرة، 2005م.

16- David Baldwin, The Concept of Security, in Security Studies, Rutledge, New York, 2011, P.28.

(أ) صراع الأيديولوجيات: تباينات الأفكار والعقائد:

من السّمات المهمّة للمجتمع الإنسانيّ؛ تباين الأفراد والجماعات والدّول فيما تتبنّاه من أفكار وعقائد، فهذا المجتمع يقوم على هذا التفرّد، ومن حقّ كلّ إنسان أن يعتنق الأفكار والمعتقدات التي يطمئن لها قلبه وعقله، وهذا الحقّ لا خلاف عليه؛ فهو حقّ راسخ ومتّفق عليه في معظم المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، ويتطلّب هذا الحقّ قبول الآخرين وتسامحهم مع الأفكار التي تختلف عن أفكارهم ومعتقداتهم، وذلك حتّى يستقيم العيش المشترك بين الأفراد ويستقر.

إلّا أنّ الواقع، ومنذ بداية الاجتماع البشريّ، يؤشّر إلى أنّ تباين الأفكار والمعتقدات بين البشر، كان يستخدم دومًا كذريعة لتبرير الصّراع، وتهديد أمن وسلامة الآخرين، ويمتلئ التّاريخ الإنسانيّ بالعديد من الممارسات المؤسَّسة على الصّراع الأيديولوجيّ، فالكثير من دول العالم كانت تردّد «التّهديد الشيوعيّ» ومخاطره على الأمن القوميّ، على الرّغم من أنّ هذه الدّول لم تحدّد أبدًا أيّ نوع من التهديد (الأيديولوجي، أو الاقتصادي، العسكري، أو كلّها معًا)، ولقد كان هذا الصّراع مصدرًا من مصادر انعدام الأمن في العديد من المجتمعات عبر فترات طويلة[17]، وفي الوقت الرّاهن يتمّ تداول مصطلح «الإرهاب» وما يمثّله من تهديدات، وعلى الرّغم من غموض هذا المفهوم من خلال الاستخدام المتباين له، تمّ تدمير أمن العديد من المجتمعات والدّول.

ونؤكّد - هنا - على أنّ الصّراع الأيديولوجيّ، على مدار تاريخ البشريّة، كان واحدًا من مصادر تهديد الأمن في المجتمع الإنسانيّ، وارتبط هذا الصّراع - وما زال - بعديد من الحروب وموجات العنف والإرهاب، الذي كان من نتائجه تحطيم الأمن الحياتيّ برمّته للعديد من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولعلّ خير مؤشّر ما نتابعه اليوم من مشاهد الهجرات القسريّة، وحركة اللّاجئين هربًا من انعدام الأمن في أوطانهم[18].

(ب) الأزمات الاقتصاديّة، والاستهلاك، والفقر وانعدام المساواة:

شهد العالم خلال السّنوات القليلة الماضية العديد من الأزمات الاقتصاديّة، التي أدّت إلى الاضطرابات الماليّة، وخلقت العديد من المشاكل الاقتصاديّة، وأدّت إلى اختلال الاقتصاد العالميّ، وما ترتّب على ذلك من فقدان الدّخل، واضطرابات مجالات العمل والتّوظيف، وكلّ هذا وغيره خلق حالة من انعدام الأمان وزعزعة الاستقرار الاجتماعيّ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات.

17- Ibid, P.28.

18- انظر في ذلك:

- Kevin Clements, Toward Conflict Trans Formation and A Just Peace, www.berghof-handbook.net, PP.3-12

ولقد أكّدت تقارير البنك الدوليّ - على سبيل المثال - أنّ الأزمة الماليّة العالميّة، بداية من عام 2008م، أدّت إلى أن تشهد عديد من بلدان العالم انخفاضًا حادًا في معدلات التّنمية، وتفاقم المشكلات المرتبطة بندرة الوظائف وفقدان الدّخل، وانتكاس الجهود الرّامية إلى الحدّ من الفقر، ومع ارتفاع أسعار السّلع، خاصّة الغذاء، عام 2008م، تفجّرت عديد من أعمال الشّغب والاحتجاجات في أكثر من 12 بلدًا في إفريقيا وآسيا، وهو ما جسّد السّخط الشعبيّ، والشّعور بالافتقار إلى الأمن، وخلق هذا كلّه حالة من الاضطرابات السياسيّة واسعة النّطاق[19].

يضاف إلى ذلك؛ أنّ تنامي مستويات الفقر وغياب العدالة، وانعدام المساواة في الاجتماع الإنسانيّ، تمثّل - جميعها - تهديدات شاملة لأمن الإنسان ولحياته ولقدرته على الفعل، كما أنّ الفجوات الكبيرة بين الأمم الغنيّة والفقيرة، تحمل إمكانيّة الانفجار الاجتماعيّ، كما أنّ ترك الفقراء بلا أمل، من أكثر مصادر انعدام الأمن؛ لأنّ ذلك يمكن أن يؤدّي إلى تقويض أسس الاجتماع الإنسانيّ برمّته[20].

(جـ) التغييرات المناخيّة والبيئيّة العالميّة:

لا شكّ في خطورة ما يحدث في العالم من تغييرات مناخيّة، وتحوّلات في البيئة الطبيعيّة من حولنا، وتهدّد هذه التّغييرات كلّ ظروف الوجود البشريّ على نطاق كبير، كما في حالة الدّول التي يمكن أن تتعرّض للغرق من خلال زيادات مستوى مياه البحار، والفيضانات التي حدثت في بنغلاديش خلال الأعوام القليلة الماضية، تعطي إشارة بسيطة إلى ما يمكن أن يصبح كارثة تنهي حياة الكثير من البشر مع هذا المدّ المتزايد.

يضاف إلى ذلك مجمل الأنشطة التي تسبّب تغيّرات جوهريّة في المناخ، وذلك مثل؛ الإنتاج الضخم للغازات، وزيادة معدلات التلوّث العالميّ، وتنامي نسبة الغازات التي تؤدّي إلى تآكل طبقة الأزون، والأنشطة التي تعمل على تهديد الأرض بنقص نسبة الأوكسجين، والتّأثيرات البيئية الواسعة لتآكل المساحات الخضراء، والقضاء على الغابات. ولعلّ خطورة هذه القضايا وتداعياتها، يجعل من الضّروري عدّها من أهم قضايا الأمن العالميّ؛ لأنّها لا تهدّد دولة أو مجتمع بعينه، لكنّها تهدد وجود البشر على هذا الكوكب وأمنهم[21].

كلّ ما سبق لا يشمل كافّة التحوّلات والتّغييرات والتّهديدات التي تواجه فكرة أمن الاجتماع الإنسانيّ، وتحدّي العمران والحضارة في المجتمع البشريّ، لكن هناك - أيضًا - تهديدات أخرى لا يتّسع المجال لعرضها وتحليلها، لكن نُشرت عديد من الدّراسات والبحوث في العالم كلّه.

19- مجموعة من الباحثين، المخاطر والفرص: إدارة المخاطر من أجل التنمية، تقرير البنك الدوليّ عن التنمية في العالم، 2013م، ص 4.

20- Caroline Thomas, Global Governance, Third World Quarterly, Vol.22, No.2, 2001, P.160.

21- Barry Buzan, New Patterns of Global Security in Twenty-First Century, International Affairs, Vol.67, No.3, Jul.1991, P.450.

وبعد هذا العرض لعدد من التّهديدات؛ ينبغي الإشارة إلى أنّ تحليل أخطار مثل هذه التّحولات، ودمجها في الخطابات والممارسات المرتبطة بالأمن، هو منهج ضروريّ، يجب الأخذ به، ويكون علماء الاجتماع، من خلال علم اجتماع الأمن، مستعدّين للعمل والإعلان عن أنّ علم الاجتماع قادر على دراسة جميع الظواهر المتعلّقة بالأمن وسلامة المجتمع وفهمها، وأنّه يستطيع، من خلال أطرِه النّظرية والمنهجيّة، تقديم تفسير مختلف، واقتراح خطط عمل تتناسب مع خطورة مهدِّدات الأمن البشريّ، وتتعامل معها بفاعلية وقوة.

وجعل علم اجتماع الأمن فرعًا جديدًا، يساهم في رصد وفحص وتحليل وتفسير مجمل الأخطار التي تهدّد أمن العيش المشترك في المجتمع الإنسانيّ، من خلال الأدوات النظريّة والمنهجيّة لعلم الاجتماع، مع الاعتماد على التّراث البحثيّ السّابق للدّراسات الأمنيّة، التي أنجزتها عدد من العلوم الاجتماعيّة، مثل: العلوم العسكريّة والإستراتيجيّة، والعلوم السياسيّة، وعلم النّفس، وعلم الاقتصاد، وغيرها، يعدّ مطلبًا مهمًّا، وضرورة ملحّة، في ظل التداعيات الخطيرة لمجمل الأخطار والمخاطر والأزمات التي تهدّد الأمن على أرض هذا الكوكب، وهو - بالأساس - وصل إلى الأمن الوجوديّ؛ أي وجود أو عدم وجود البشر أو الحياة البشرية برمتها.

رابعاً: علم اجتماع الأمن: التعريف والموضوع:

أشارت الدّراسة، فيما سبق، إلى أنّ أهمّ توصيفات لطبيعة العالم المعاصر؛ هو «مجتمع المخاطر»، وهي توصيفات جاءت من علم الاجتماع، ومن المهمّ، أيضًا، الإشارة إلى ذلك الارتباط الوثيق بين مفهوم الأمن ومفهوم المخاطر، فكلّما زادت المخاطر التي يواجهها عالمنا المعاصر، تتدهور مستويات الشّعور بالأمن والأمان.

وتكشف تفاصيل الحياة اليوميّة في معظم المجتمعات المعاصرة، عن أنّه من الممكن أن نجد المخاطر وما يمكن أن يترتّب عليها من مخاطرة[22*] في مجالات عديدة؛ داخل المنزل، وفي أماكن العمل، وفي الشّارع، وفي مناطق الكوارث الطبيعيّة والبيئيّة، ..إلخ، ويمكن تصنيف المخاطر بأساليب عديدة، أهمها؛ التّفرقة بين المخاطر النّاتجة عن ظروف ماديّة أو بيئيّة أو ظروف خارجة عن إرادة البشر، والمخاطر الاجتماعيّة التي ترتبط بما يكمن في البنية الاجتماعيّة من مصادر لإحداث ضرر للأفراد والجماعات الذين يعيشون في كنف هذه البنية. ومن خلال استخدام مفهوم التعرّض للخطر، يمكن التّمييز بين التعرّض للخطر الفيزيقيّ، وهو الخطر المرتبط - غالبًا - بالمخاطر الطبيعيّة والبيئيّة، وبين التعرّض للخطر الاجتماعيّ

22*- يميّز علم الاجتماع بين مفهوم المخاطرة (Risk)، ومفهوم الخطر (Hazard)؛ حيث إنّ الخطر يشير إلى صور التهديد الوشيك، أو الخلل المحتمَل، أو الشرّ المحدق، الذي سببته ظروف أو أفعال معيّنة، أمّا المخاطرة؛ فإنّها تشير إلى احتمال أن يتعرّض الإنسان إلى الضّرر إذا عرّض نفسه للخطر.

الذي يتخلّق داخل البناء الاجتماعيّ، ويكون الخطر الاجتماعيّ ناتجًا عن عوامل داخليّة عديدة، مثل: الفقر والبطالة وعدم المساواة والتّهميش، وسوء التّغذية ونقص الطعام، وسوء السّكن، وانخفاض - أو تردّي - مستويات نوعيّة الحياة التي يعيشها الفاعل الاجتماعيّ[23].

لعلّ الطّرح السّابق، يؤشر إلى أهميّة تأسيس علم اجتماع الأمن؛ حيث إنّ الفهم السوسيولوجي للأمن سوف يأخذنا إلى مساحات أخرى جديدة، ويقدّم لنا تفسيرات تبدو على درجة كبيرة من الأهميّة لكلّ صور المخاطر والأخطار التي تواجه أمن الاجتماع الإنسانيّ، وسوف يضيف أبعاداً جديدة لفهم الأمن، تلعب دورًا مهمًّا وحاسمًا في تأسيس فكرة الأمن ليكون واقعًا معاشًا في المجتمع.

ويمكن تأكيد الفكرة السابقة، من خلال الإشارة إلى أن البحث المعتاد للمخاطر التي تحملها التغييرات المناخيّة، لم يعد كافيًا لمساعدة الأفراد والجماعات والمجتمعات في فهم طبيعة وتداعيات هذه التغييرات، وما تحمله من تهديدات مباشرة لاجتماع البشر على هذه الأرض، ويمكن، هنا، لعلم اجتماع الأمن أن يلعب دورًا جديدًا وأساسيًا في توفير القاعدة العلميّة والرؤى الجديدة الملهمة للسياسات الجديدة التي تدعم الرّقابة، وتعبئة الأفراد نحو التغيّر الاجتماعيّ، والتعامل بشكل مختلف ورشيد مع البيئة التي يعيشون فيها، خاصّة وأنّ التغييرات البيئية والمناخية ومشكلات المياه، والتنوع البيولوجيّ، ومشكلات الغلاف الجويّ، ..إلخ، كلّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأنشطة والممارسات البشرية، بالتّالي، لا يمكن فهم هذه التغيّرات أو تناولها دون الانتباه الشديد إلى التفاعلات بين الإنسان والنظم الطبيعية[24].

(1) تعريف علم اجتماع الأمن:

طرح «كيفين كليمنتس» تساؤلًا مهمًّا مؤدّاه: لماذا تسيطر على الأفراد والمجتمعات فكرة عدم اليقين وانعدام الأمن في الوقت الرّاهن، حتّى عندما لا يثبت انعدام الأمن؟ فالأفراد الذين يمارسون رياضة القفز بالحبال، وتسلّق الجبال، والقفز بالمظلّات، ..إلخ، يلعبون مثل هذه الرياضة لتعويض انعدام الأمن في حياتهم اليومية، في حين أن هناك آخرون يعيشون في ظروف خطيرة وغير آمنة، ويرغبون في الوصول إلى مستويات الحدّ الأدنى من الأمان لضمان بقائهم على قيد الحياة[25].

23- أحمد زايد، التخطيط لآليات إدارة المخاطر والأزمات في السياسات الاجتماعية، ضمن إشكاليات السياسات الاجتماعية في إدارة المخاطر بدول مجلس التعاون الخليجي، سلسلة الدراسات الاجتماعية، العدد 80، مجلس وزراء الشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، البحرين، 2013م، ص 11.

24- Word Social Science Report, Op.Cit., P.11.

25- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Op.Cit., P.4.

وتكشف الفكرة السّابقة جوهر التناقض المحيّر الذي يواجه الباحثين والمحلّلين عندما يتعاملون بالدّراسة والتحليل مع مفهوم الأمن؛ حيث إنّه ليس هناك مستويات متّفق عليها للأمن أو لانعدام الأمن أو للمخاطرة، إلّا أنه يمكن تحديد ذلك إمبيريقيًا من خلال عمليّات التّفاعل والممارسات الواقعيّة، ونحتاج، هنا، إلى الرّبط والتّكامل بين الأفراد وممارساتهم وأفعالهم في سياق حياتهم اليوميّة، ويتدفّق هذا التّكامل عبر عمليات التنشئة الاجتماعيّة النّاجحة، مثل؛ الارتباط الوثيق بين الآباء والأبناء، الذي يوفّر الأساس لارتباطات أخرى قويّة داخل المدرسة، وغيرها من المؤسّسات الاجتماعيّة (مثال؛ دور العبادة، أماكن العمل، أماكن التّرفيه وقضاء وقت الفراغ).

وهناك، أيضًا، عوامل تهدّد فكرة الإحساس بالأمن لدى الفرد خلال عمليّات التنشئة الاجتماعيّة، وينطبق هذا على المؤسّسات القائمة بمكافأة السلوك المقبول اجتماعيًا، وهي، أيضًا، المؤسّسات التي تسعى إلى ضمان الأمن عن طريق التّهديد والعقاب (مثل مؤسّسات الشرطة والجيش.. إلخ)، ويحرص الأفراد في معظم المجتمعات على عمليّات ضبط النفس، ويسعون إلى المعاملة المتماثلة من خلال علاقاتهم بالآخرين، والعمل على توفير السّياق المناسب لتفاعلاتهم الاجتماعية الآمنة والمستقرّة، خاصّة وأنّه لو كان الفرد يعمل على أساس التّهديد والتّناقض مع الآخرين، والتّفكير بشكل أسوء منهم؛ فإنّ الحياة - هنا - سوف تبدو مستحيلة، ولا يعني هذا أنه لا توجد تهديدات، أو أنّ انعدام الأمن هو مجرّد نتيجة لعمليّات التّنشئة الاجتماعيّة ومؤسّساتها، لكن يعني أنّ الحياة الاجتماعية المستقرّة، والسلوك السلميّ، والعيش المشترك الآمن، والأمن الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ يرتبطون بعوامل أخرى غير فكرة تفادي الخطر والمخاطر[26].

على سبيل المثال؛ يمكن الإشارة إلى أنّ تنامي مستويات الأمن والطّمأنينة في المجتمع، يرتبط بفكرة الثقة ومستوياتها، بمعنى أنّه كلّما زادت الثقة بين أفراد وجماعات المجتمع، زاد الإحساس بالأمن، ومن ناحية أخرى؛ هناك مستويات للثقة تعبّر عن علاقة الأفراد والجماعات بالمؤسّسات الرسمية وغير الرسمية، بمعنى أنّ الثقة هنا تبقي المادّة اللاحمة للحياة الاجتماعية، التي تمدّ المجتمع بمستويات عالية من الأمان[27].

كما ينبغي الإشارة، هنا، إلى أنّ الحياة الاجتماعيّة تبدو، أحيانًا، غير واضحة لدى عديد من الأفراد، كما أنّ السّلامة والأمن والخطر تتعايش معًا، أو تكمن في نفس الأشياء والممارسات على حدّ السّواء، فعلى سبيل المثال؛ الأشياء التي لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها، يمكن أن تقضي على حياته أيضًا؛ فالمياه التي لا يستطيع أن يعيش الإنسان بدونها، يمكن أن تُغرقه فيموت، الغذاء الذي يتناوله، يمكن أن يتسمّم به فيموت أيضًا، ..إلخ، وعلى هذا؛ فإنّ البراعة هي اكتشاف الخطر لا تجنّبه؛ لأنّه من المستحيل تجنّب الخطر بشكل

26- Ibid, P.5.

27- لمزيد من التفاصيل حول الثقة، انظر:

- خالد كاظم أبو دوح، رأس المال الاجتماعي: آفاق جديدة في النظرية الاجتماعية، دار إيتراك، 2014م، ص ص 191- 214.

مطلق، أو بمعنى آخر؛ البحث عن كيفيّة استخدام الخطر للوصول إلى المزيد من الأمن والخير والسلامة، أو البحث عن التّوازن بين الخيارات التي تحمل في طياتها الأمن والخطر.

ومن خلال المناقشة السّابقة، يمكن التّأكيد على أنّ الأمن مفهوم نسبيّ وذاتيّ جدًّا؛ فالفرد (وكذلك الجماعات، والمنظّمات، والمجتمعات)؛ هو الذي يحدّد من خلال أفعاله وممارساته وثقافته المعنى الحقيقيّ للأمن كما يبدو له، ويتّسع مفهوم الأمن، هنا، ليتضمّن جوانب معرفيّة عديدة، وتُثار العديد من التّساؤلات التي يمكن أن تمثّل جوانب من اهتمامات علم اجتماع الأمن، مثال: الأمن لمن؟ ولماذا؟ وما الشّروط التي تحقق الأمن؟.

بالاستناد إلى ما سبق، يمكن الإشارة إلى أنّ علم اجتماع الأمن هو أحد فروع علم الاجتماع الذي يهتمّ بدراسة الأمن كعملية اجتماعيّة أساسيّة، تهدف إلى تأسيس مجالات وفضاءات اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة آمنة - نسبيًا - داخل المجتمعات، حتّى يتمكّن الأفراد من العيش معًا، وتحقيق القبول المتبادل للثقافات واللغات والهويات والتباينات الأخرى، دون خوف من التهديد بالعنف المباشر أو غير المباشر، والوعي بأهميّة هذه الفضاءات الآمنة، يمكن أن يخلق حالة تكامليّة ورغبة عامّة في مقاومة كلّ العلاقات المدمّرة التي تحمل صور التّهديد.

كما أنّ علم اجتماع الأمن؛ هو العلم الذي يقدّم لنا الفهم السوسيولوجيّ للأمن، وللأساليب التي يمكن من خلالها تأسيس ما يمكن أن نطلق عليه المجتمعات الآمنة؛ وهي تلك المجتمعات التي لديها القدرة على تدعيم الثّقة العامّة، وتسهيل التّعاون، والأخذ، دومًا، بالقرارات التي تبتعد عن العنف، التي تحمي أبنيتها من الصّراع، والإقرار بالتحوّل الاجتماعيّ والسياسيّ السلميّ.

وتتضمّن هذه التّعريفات السّابقة كلًّا من الجوانب التحليلية والمعياريّة لرؤية علم الاجتماع لمفهوم الأمن، كما أنّ هذه التّعريفات تصف السّياقات والظّروف التي من خلالها يشعر الأفراد بالأمن والأمان، لكنّه يؤكّد، في ذات الوقت، على أنّ المجتمع الآمن يتطلّب التزامات قويّة من قبل الأفراد والجماعات والدّولة، بالعمل على التمسّك بالظّروف التي تدعم الأمن والأمان، وهذا الالتزام بمثابة الضمير الجمعيّ الذي يعدّ البديل الأمثل لعمليّات اللّجوء إلى القوّة القسريّة أو الجبريّة في فرض الأمن والأمان، فالدّولة القوية التي تمتلك القوّة العسكرية والأمنية لفرض القانون والنظام داخليًا، والقدرة على تحقيق التوازن مع القوى الخارجية، قد تكون أكثر عرضة للخطر من تلك الدّول الضعيفة التي لا تمتلك أدوات القوة القسرية[28].

28- انظر في ذلك:

- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Op.Cit., P.7.
- Vida Bajc, Sociological Reflection on Security Through Surveillance, Op.Cit., P.5.

وقد يهاجم أنصار النظريّة الواقعيّة مجمَل الأفكار التي يطرحها الفهم السوسيولوجي حول الأمن، على أساس أنّها لا تركّز، أو لا تعوّل، كثيرًا على المكوّنات السياسيّة الأساسيّة التقليديّة للأمن (السلطة، القوة، القدرة العسكرية)، وأنّ هذا الفهم لا يقدّم أيّ حلول لمعضلة الأمن، وقد يكون الرّد على ذلك؛ بأنّ وجهات النّظر السوسيولوجيّة، الأكثر شموليّة حول الأمن، تجعل من الممكن تطوير مفاهيم ورؤى واقعية أكثر ومستقرّة أكثر وإمبيريقيّة أكثر؛ لأنّها تضع في اعتبارها كلّ الأفراد والدّول والعالم بأسره، كما أنّها تؤشّر إلى فكرة محوريّة، مؤدّاها أنّ الأمن يصنعه الفرد (وكذلك الجماعات والمجتمعات والدول) عبر ممارساته وتفاعلاته في السياقات الاجتماعية المختلفة التي يعيش في كنفها.

(2) علم اجتماع الأمن بين الضّرورة واليوتوبيا:

إنّ طرح علم اجتماع الأمن كفرع جديد يعمل على تقديم فهم سوسيولوجي كامل للأمن كعمليّة اجتماعية، لا يعدّ رؤية مثاليّة أو يوتوبيا حول الأمن، بقدر ما هو ضرورة تفرضها مجمل التحولات العالميّة التي تحدث كلّ يوم، وتضرب بشدّة مختلف الأبنية الاجتماعية التي يعيش في ظلّها الإنسان المعاصر، وجعلت من هذا الإنسان - الذي عدّه بعض المفكرين خاتم البشر -، يعاني في ظلّ مجتمع وعالم يحيطه بالمخاطر والأخطار، للدّرجة التي تهدّد فكرة الاجتماع البشري كلّه.

وعلى هذا؛ فإنّ علم اجتماع الأمن، بالأساس، هو؛ محاولة لتبنّي تصوّر شامل للأمن، خاصّة أنّه - دائمًا - سوف يكون هناك صراع من أجل الوصول لمستويات مقبولة من الأمن والحفاظ عليها، كما أنّ علم اجتماع الأمن لا يمكن له أن يتجاهل أهميّة الدّولة ودورها الفاعل كمؤسّسة للقوّة محليًا وعالميًا، ويمكن لها أن تلعب دورًا بارزًا في تبنّي هذه الرؤية السوسيولوجيّة للأمن ونشرها، وبمعنى آخر؛ إنّ ما يقترحه الفهم السوسيولوجيّ للأمن، أنّ وجهات النظر العسكريّة البحتة والضيّقة حول الأمن، تعمل على تقويض أو إهمال وجهات نظر الأفراد العاديين لتحديد أمنهم الذاتيّ والاجتماعي، أو تحديد ما إذا كانت الإجراءات التي تتبعها الدّول توفّر لها الأمن محليًا وعالميًا بحق؟![29]

إضافة إلى أنّ فكرة الرّبط بين الأمن وبنية المجتمع، والتّوسع في تأسيس الفضاءات الآمنة، يوفّر للأفراد والجماعات والحركات الاجتماعية والقادة السياسيين المعايير المهمّة لتحديد ما إذا كان هذا الرّبط يعزّز السلوك الأمن أم يقلله، فممارسات الأفراد أو الحكومات أو المجتمع الدولي يجب أن تدعم العلاقات الترابطيّة التكامليّة، وإذا لم يكن ذلك، فإنّه من المتوقّع تزايد انعدام الأمن، سواء على المدى القصير أو المدى الطّويل،

29- Ole Waever, Towards A Political Sociology of Security Studies, Security Dialogue, Vol.41, No.6, Dec.2010, PP.654-655.

وهذا سوف يخلق ممارسات تهدّد أمن الجميع بالأساس، والاتّفاق على شروط الأمن والالتزام بالمعايير المحدَّدة له، هو الذي يؤسّس للأمن الحقيقيّ ويعززه.

(3) مستويات التّحليل السوسيولوجي للأمن:

من الضّروري لعلم اجتماع الأمن أن يتبنّى نظرة شمولية حول الأمن، حيثما كان ذلك ممكنًا، وتتحقّق هذه النظرة الشمولية من خلال الأخذ بثلاث مستويات لتحليل الأمن وهي (الفرد، الدولة، النظام العالمي)، ويؤكّد «بوزان» أنّ الأمن، في كلٍّ من هذه المستويات، يعدّ ضروريًا للأمن على المستويات الأخرى؛ بل يمكن القول: إنّ الأمن العالميّ وأمن الأفراد وجهان لعملة واحدة[30].

ومن المؤكّد أن مفهوم الأمن ذاته يتحقّق عبر المستويات الثلاثة معًا؛ الأفراد والدّول والنظام العالمي، كما أنّ هذه المستويات ترتبط ببعضها البعض، وتؤثّر وتتأثر ببعضها البعض، وعلى الرغم من التمييز، أحيانًا، بين الأمن الفرديّ، والأمن القوميّ، والأمن العالميّ، على مستوي التّنظير والدّراسات، إلّا أنّ ذلك لا يساعد في الوصول للفهم الكامل والحقيقيّ للأمن، إنّ محاولة التّركيز على مستوى منهم دون الأخر، يمثّل محاولة قاصرة لفهم الأمن.

وعلى هذا؛ تصبح من مهام علم اجتماع الأمن رصد السمات المشتركة التي تربط بين هذه المستويات الثلاثة، وذلك بغضّ النّظر عن المنطق النظريّ الذي يتبنّاه الباحث، فالفهم السوسيولوجيّ للأمن يمكن أن يؤكّد أنّ المصالح المشتركة بين الأفراد والدّول والنّظام العالميّ يمكن أن تتمثّل في: منع الأضرار (أو الحدّ منها) التي يمكن أن تصيبهم، البقاء على قيد الحياة سواء على المدى القصير أو الطّويل، الاستقلال والتحرّر، تعزيز قوّة الحياة الجمعيّة، تعزيز الرفاهيّة الاقتصاديّة، تحقيق المجد والسّمعة الطيبة، الاستقرار والحفاظ على النّظم الثقافيّة والمعتقدات الخاصّة، وهذه المصالح المشتركة هي الحدّ الأدنى من الشروط الأساسية للعيش المشترك في سياقات أمنة.

وإذا كان من المهمّ معرفة البنية الماديّة للدّولة، وتصوّرات رجال الحكم والسّياسة ومؤسّسات الدّولة لمفهوم الأمن؛ فإنّه من الأهمّ معرفة ضمانات الحفاظ على إشباع المستوى المادّي للفرد (كالغذاء، الصحّة، التّكامل النفسي والاجتماعي، ...إلخ)، وأيضًا؛ معرفة الفضاءات المؤسّسية التي يتصرّف أو يتفاعل الأفراد داخلها، أو معها (المؤسّسات الأسريّة والدينيّة والتعليميّة والترفيهيّة ومؤسّسات العمل وغير ذلك)، وأخيرًا؛ من المهمّ - أيضًا - معرفة الأطر الفكريّة والثقافيّة الحاكمة لتفاعل الأفراد مع الآخرين، وكيف يتصوّر الرجال والنساء، وجماعات الأغلبية والأقليّة مفهوم الأمن؟ وكيف يتصرّف الأفراد في واقعهم لحماية

30- Barry Buzan, People, State and Fear, ecpr Press, London, 2007. P. 21.

أنفسهم؟ كيف أن المؤسّسات التي هم جزء منها تعزّز أو تضعف هويتهم الفردية؟ لا شكّ في أنّ معرفة كلّ هذه العمليات - بشكل عامّ - له أهميّة خاصّة في تحديد مفهوم الأمن وفقًا للتحليل السوسيولوجيّ[31].

ومن المهمّ أيضًا؛ أن يتناول علم اجتماع الأمن العالم كوحدة متكاملة غير متجزّئة، ومثل هذا التّناول حاسم في تحقيق وفهم الأمن العالميّ المشترك، وبنفس الرّؤية يكون من الأهميّة رصد تصوّرات الأفراد والجماعات المتنوّعة للنظام العالميّ، وقدراته الأمنيّة، والمؤسّسات العالميّة التي تحتاج إلى التّأسيس أو التطوير من أجل الأمن العالميّ كلّه، ومن المهمّ الإشارة هنا إلى أنّه في ظلّ التطور المتسارع للمؤسسات الدولة غير الحكوميّة، يصبح التصوّر العالميّ للأمن أكثر تعقيدًا من التصوّرات المرتبطة بالدّول القوميّة.

(4) موضوعات علم اجتماع الأمن:

يكشف العرض السابق عن أن هناك عديد من الموضوعات التي يمكن أن يركز عليها علم اجتماع الأمن، علي أن الموضوع الرئيس سوف يكون قائم علي فكرة الدراسة السوسيولوجية للأمن بمعناه الشامل عبر مستوياته الثلاثة التي أشرنا لها سابقا، وأن تقوم هذه الدراسة علي أساس أن الأمن عملية اجتماعية، وممارسات تتكون في البنية العقلية للأفراد، وتتجسد في ممارسات عبر السياقات المختلفة التي يتفاعل عبرها الفرد.

كما أن علم اجتماع الأمن سوف يكون مهتمًا بدراسة وفحص وفهم مختلف التّحديات التي تواجه الحياة الفرديّة والجماعيّة للأفراد، عبر السّياقات الاجتماعية المختلفة، وعبر المستويات المحليّة والدّولية والعالميّة، وكذلك معرفة وفهم الاختلافات بين الثّقافات في كفاحها من أجل التّعبير عن رؤيتها للأمن والسّلامة والحماية، وفهمها للمخاطر وانعدام الأمن.

ومن المفاهيم المحوريّة التي يجب أن يهتمّ بها علم اجتماع الأمن، مفهوم الدّولة الآمنة (Secure State)، وما هي شروط وضمانات تأسيس هذه الدّولة؟ ومناقشة ذلك مقابل فكرة الدولة القوية (Hard State)، خاصّة أنّ الدّولة المنوط بها تحقيق أمن الأفراد، يمكن أن تنتج حالات من انعدام الأمن، فما هو ملاحظ في عالمنا المعاصر؛ أنّ النّظم السياسيّة والدّول التي تدّعي أنّها موجودة لضمان أمن الأفراد والجماعات والثقافات، تظهر عديدًا من الممارسات التي تهدّد من خلالها المواطنين وأمنهم وسلامتهم، وإذا كانت الدّول من الممكن لها أن تتصرّف بطرائق تولّد انعدام الأمن؛ فإنّه من الممكن لمواطنيها، أيضًا، أن يفعلوا الشيء نفسه بالنّسبة إلى هذه الدّول، وذلك من خلال الإرهاب والتّخريب، ولهذا يكون من المهم لعلم اجتماع الأمن أن يركّز على فكرة التّرابط بين الأمن والدّيمقراطية والمساواة.

31- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Op.Cit., P.14.

ويمكن، أيضًا، أن يساهم علم اجتماع الأمن في تقديم فهم جديد لمفهوم المراقبة؛ ففي الواقع، ومن نواحي عديدة أصبحت سياسة المراقبة؛ هي الاختيار الذي يتمّ من خلاله معالجة المخاوف الأمنيّة، وممارسة الرّقابة لخدمة الأمن ترتكز على عنصرين؛ الأوّل: هو التفرّد، والثّاني: هو الإقصاء، ويتمّ من خلالهما التحكّم في السلوك البشريّ، وتنظيمه عبر الزّمان والمكان[32].

ما سبق مجرّد أمثلة لأهمّ الموضوعات التي يمكن أن ينشغل بها علم اجتماع الأمن، إلّا أنّ الواقع يكشف لنا أنّ هناك العديد من الموضوعات والمفاهيم والأفكار التي يمكن لعلم اجتماع الأمن أن ينشغل بها، كما أنّ الفكرة مطروحة للنّقاش والتّخصيب، والأهمّ أن نركّز على ضرورة تأسيس علم اجتماع لدراسة الأمن في عالمنا المعاصر، الذي يعكس صورًا وممارسات غير محدودة تهدّد فكرة الأمن في المجتمع الإنسانيّ.

الخاتمة:

ممّا لا شكّ فيه أنّه حدث تحوّل في طبيعة مصادر التّهديد للفرد وللدّولة القوميّة؛ إذ لم يصبح التهديد العسكريّ الخارجيّ هو مصدر التّهديد الوحيد للأمن (كما يفترض أنصار النظريّة الواقعيّة)، فكلّ مستويات الأمن الآن تواجه بأنماط عدّة من مصادر التّهديد التي ليست، بالضّرورة، مصادر عسكريّة، منها: تجارة المخدّرات عبر الحدود، والجريمة المنظمة، وانتشار الإرهاب الدوليّ، وانتشار الأمراض والأوبئة؛ كالإيدز، وانتشار الفقر، والتلوّث البيئيّ ...إلخ، وعجز المنظور التقليديّ للأمن عن التّعامل مع تلك القضايا؛ إذ إنّ التّهديد في معظم الأحيان غير مرئيّ أو واضح، كما أنّ القوّة العسكريّة لا تصلح كأداة لمواجهة تلك الأنماط من مصادر التّهديد الذي قد تفوق آثاره المدمّرة آثار التّهديد العسكريّ المباشر.

ولعلّ ما سبق يؤكّد حاجتنا إلى منظورات ومفاهيم جديدة لدراسة الأمن وضماناته، في ظلّ هذا العالم الذي تتطوّر فيه وتتعاظم عوامل انعدام الأمن، وعلى هذا الأساس حاولت هذه الدراسة، لفت الانتباه إلى ضرورة انشغال الجماعة العلميّة في علم الاجتماع العربيّ بفكرة الدّراسة السوسيولوجيّة للأمن، خاصّة، أنّه يمكن لعلم اجتماع الأمن أن يوفّر لنا نظرة ثاقبة حول كيفية تشكيل المفاهيم المختلفة للأمن وإستراتيجيّة طبيعة الحياة الاجتماعية، بما في ذلك فهمنا للديمقراطية والمشاركة الاجتماعية في العمليات السياسيّة، وتصوراتنا للخصوصية والثقة بين الفرد والدولة، وكذلك إحساسنا بجماليات حياتنا اليوميّة ومتطلبات أمننا وسلامتنا فيها.

كما أنّ علم اجتماع الأمن، يمكن أن يساعدنا في معرفة الاختلافات بين المجتمعات والثّقافات والأفراد، في الكفاح من أجل التعبير عن رؤيتها للأمن والسلامة والحماية، وفهمها للمخاطر وانعدام الأمن، وأساليبها

32- Vida Bajc, Sociological Reflection on Security Through Surveillance, Op.Cit., P.2.

وطرقها في التعامل مع ذلك المجتمع الذي ينتج، ويعيد إنتاج، صورًا متباينة من المخاطر والتهديدات اليوميّة التي لا تقتصر على مجتمع بعينه، بقدر ما تهدّد العالم كلّه والاجتماع الإنساني برمّته.

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

- أحمد أبو زيد، نظريّة العلاقات الدولية، المجلّة العربية للعلوم السياسيّة، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 36، خريف 2012م.
- أحمد زايد، التخطيط لآليات إدارة المخاطر والأزمات في السياسات الاجتماعية، ضمن إشكاليات السياسات الاجتماعية في إدارة المخاطر بدول مجلس التعاون الخليجي، سلسلة الدراسات الاجتماعية، العدد 80، مجلس وزراء الشؤون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، البحرين، 2013م.
- أنتوني جيدنز، عالم منفلت: كيف تشكل العولمة حياتنا، ترجمة: محمد محيي الدين، دار ميريت، القاهرة، 2005م.
- أنور محمد فرج، نظرية الواقعية في العلاقات الدولية، مركز كردستان للدراسات الإستراتيجية، السليمانية، 2007م.
- أولريش بيك، مجتمع المخاطر العالمي: بحثًا عن الأمان المفقود، ترجمة: علا عادل وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013م.
- خالد كاظم أبو دوح، رأس المال الاجتماعي: آفاق جديدة في النظرية الاجتماعية، دار إيتراك، 2014م.
- رايت ميلز، الخيال السوسيولوجي، ترجمة: عبد الباسط عبد المعطي وزميله، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987.
- سليمان عبد الله الحربي، مفهوم الأمن: مستوياته وصيغه وتهديداته، المجلة العربية للعلوم السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 19، بيروت، صيف 2008.
- مجموعة من الباحثين، المخاطر والفرص: إدارة المخاطر من أجل التنمية، تقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم، 2013م.

المراجع الأجنبية:

- Barry Buzan, New Patterns of Global Security in Twenty - First Century, International Affairs, Vol.67, No.3, Jul.1991.
- Barry Buzan, Rethinking Security After the Cold War, Cooperation and Conflict, Vol.32, 1997.
- Barry Buzan, People, State and Fear, Ecpr Press, London, 2007.
- Caroline Thomas, Global Governance, Third World Quarterly, Vol.22, No.2, 2001.
- David Baldwin, The Concept of Security, in Security Studies, Rutledge, New York, 2011.
- Eibe Riedel, Social Security as A Human Right, Spring, New York, 2007.
- Kevin Clements, Toward A Sociology of Security, Working Paper, No. 90, July, 1990.
- Lisa Stampnitzky, Toward A Sociology of «Security», Sociological Forum, Vol.28, No.3, Sep. 2013.

- Ole Waever, Towards A Political Sociology of Security Studies, Security Dialogue, Vol.41, No.6, Dec.2010.
- Vida Bajc, Sociological Reflections on Security Through Surveillance, Sociological Forum, Vol.22, No.3, 2013.
- World Social Science Report 2010, UNICCO, Paris, 2010.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017